البابوية وانتخاب البابوات

رأيت في الجزء الماضي من المقتطف خبر وفاة البابا لاون الثالث عشر وطرفًا من ترجمته وقد رأيت انْ اجمع مختصر تاريخ البابوية ووصف مركزها الحالي في المجتمع الدولي

كان النصارى في اول نشأتهم كالاشتراكيين في هذا العصر لا رؤساء لهم يجتمعون لعبادة الله وإمامهم اشدهم ورعًا واقتدرهم على الوعظ والارشاد تركوا الرئاسة المدنية للامم الذين يسودونهم قائلين لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لانهُ ليس سلطان الاَّ من الله. ثم لما كثر عددهم وقوي شأنهم خصوا الرئاسة الدينية باربعة من اساقفتهم سموهم بطاركة وهم بطاركة رومية والقسطنطينية وانطاكية والاسكندرية عواصم ولايات الامبراطورية الرومانية وجعلوا لاسقف اورشليم رتبة بطريرك شرف

وكان البطاركة اصلاً متساوين في الرتبة والمقام الاَّ ان بطاركة رومية حاولوا من اول الامر السيادة على غيرهم بدعوى انهم خلفاء بطرس الرسول . ولم يأتِ القرن الخامس للميلاد حتى كانوا قد فازوا بمطلبهم واعترف الامبراطور الروماني بالاسقف انوسنتس الاول رئيساً عامًّا للكنيسة المسيحية . والمرجح ان اول من لُقّب بلقب بابا بمعناهُ الحالي هو غريغوريوس الكبير الذي تولّى رئاسة الكنيسة الرومانية من سنة ٥٩٠ الى ٦٠٤ للميلاد

وساعد البابوات في نيل الرئاسة العامَّة ما كان لرومية مقر كرسيهم من السلطان في تلك الايام حين كانت عاصمة العالم والمرجع الاعلى للممالك في احكامها وسياستها فزعامتها للعالم في المسائل السياسية ساعدت بطاركتها على الوصول الى الزعامة الدينية ايضًا . ولما نقل قسطنطين الكبير كرسي الملك الى عاصمته الجديدة خلا لاسقف رومية الجو فصار الآمر الناهي الوحيد فيها وزد على ذلك ان الامبراطورين لجأوا اليهِ مرارًا في صدّ غزوات قبائل الشمال التي كانت تتهدد المملكة الرومانية فكان يفعل بسلطته الدينية وهو اعزل من السلاح المادي ما كانت تعجز عنهُ جنود الامبراطورين فلذلك علت منزلتهُ وعمَّت هيبتهُ . ولما سقطت الامبراطورية الغربية زادت سلطة البابا وصار اعلى اصحاب المقامات في اوربا . وكان البابوات في تلك الايام يفضون المشاكل بين مدن ايطاليا وقبائل البربر الشمالية فاصبحوا الحكَم العام تتقاضى اليهم الممالك وتجري على احكامهم

وارسلت رومية دعاتها الى فرنسا وجرمانيا وجزائر بريطانيا وغيرها من ممالك اوربا تدعو الناس الى النصرانية فاهتدوا بهديها وانشأوا الكنائس واشربت قلوبهم حب رومية التي دعتهم

من الظلمات الى النور فكانوا يرسلون اساقفتهم اليها لينالوا البركة من يد البابا اعترافاً بخضوعهم لهُ . وبقي بابا رومية رئيساً عاماً للنصرانية الى ان وقع الخلاف الشهير بين النصارى في مسألة وضع الايقونات في الكنائس فاتخذت كنيسة رومية والكنائس التابعة لها الوجهة المخالفة لقرار المجمع القسطنطيني الذي عُقد سنة ٧٥٤ والذي اتبعتهُ الكنائس الشرقية . وزاد الخلاف بين رومية والقسطنطينية حتى آل الامر الى انفصال الكنيستين الشرقية والغربية في القرن الحادي عشر فخسرت رومية بذلك سلطانها في الشرق لكن حالفت ملوك اور با وامراءها فكانت تستعمل سلطتها الدينية في توطيد سلطتهم وكانوا يستخدمون جيوشهم في الذود عنها وتمليكها المدن والمقاطعات كما فعل بين وشارلمان وغيرهما وهكذا تأسست سلطة البابا الزمنية التي بقيت الى ان استولى الايطاليون على رومية سنة ١٨٧٠

وساعد البابوية في توسيع نطاق سلطتها الزمنية ما كانت عليهِ اوربا في القرون الوسطى من الجهل فادَّعت الكنيسة ووافقها شارلمان ان الكهنة خارجون عن سلطة المحاكم السياسية مدنيًّا وجنائيًّا فلا يحاكمون الاَّ امام محاكم الكنائس . ثم توسعت بالامر وحكمت بان لها الاختصاص بالنظر في كل المسائل المتعلقة بالازواج والارامل واليتامى لعلاقتها بالدين . ولم تقف عند هذا الحد بل ادعت الاختصاص بالنظر في المسائل الجنائية ايضاً بدعوى ان الجناية تعدٍ على شريعة الله فللكنيسة الحق في معاقبة الجانين . وبهذه الطريقة اصبح الكهنة قضاة للشعب ينطقون بالاحكام ويكلون تنفيذها الى الحاكم الزمني . ولما كان الاساقفة تابعين لرومية كان استئناف احكامهم يرفع الى البابا فاصبح الحكم الاعلى لا مرد لحكمهِ واصبح الملوك والامراء كالشرطة ينفذون احكامهُ ويأتمرون باوامرهِ

وفي اواسط القرن العاشر قام اوتو الكبير ملك المانيا فاعاد الى الامبراطورية الرومانية مجدها الذي كانت عليهِ في زمن شارلمان وبقي ملوك المانيا يتوارثون هذه الامبراطورية التي دعيت بالامبراطورية الرومانية المقدسة حتى اخذها منهم نابليون الاول . ولما قويت السلطة الزمنية في القرن العاشر اجتمع في المملكة الرومانية المقدسة حاكمان يتنازعان السلطة البابا والملك وتضاربت الآراء في نسبة احدهما الى الآخر . قال البعض ان كلاً منهما مستمد سلطتهُ من الله تعالى فهما اذاً متساويان وكلاً منهما متمم للآخر احدهما يحكم الانفس والآخر يحكم الاجساد وعلى الملك ان ينفذ بسيفهِ قوانين الكنيسة ويدفع عنها غارات الهراطقة والاعداء . وقال حزب البابا ان لصاحب السلطة الروحية التقدم على صاحب السلطة الزمنية . وذهب حزب الملك الى ضد ذلك وكل من الحزبين استشهد على صحة قولهِ بآياتٍ من الانجيل

فسرها على ما يوافق دعواهُ

غير ان السلطة الزمنية ما زالت تنمو وتتقوى وتستقل عن السلطة الدينية حتى لم يبقَ لهذه سوى بعض مقاطعات ومدن اهداها اليها شارلمان وغيرهُ الى البابوات . ولما نهضت ايطاليا حديثًا نزعت املاك البابا منهُ شيئًا فشيئًا حتى لم يبقَ لهُ الاَّ مدينة رومية فعارضتها فرنسا في ذلك وارسلت فصيلة من الجيش لحمايتها حتى اضطرت الى استرجاع جنودها منها سنة ١٨٧٠ حينما نشبت الحرب بينها وبين بروسيا فاستغنم فكتور عمانويل تلك الفرصة وضم رومية الى ايطاليا وجعلها عاصمة المملكة . وكان حينئذٍ في كرسي البابوية بيوس التاسع فاقام الحجة على ايطاليا واستغاث بدول اوربا فلم يغثهُ احد . ويدعي انهُ لما كان للبابا املاك زمنية كان جامعًا في يدهِ سلطة روحية وسلطة سياسية في ما يختص بالحكم في مقاطعاتهِ وكانت بقية الدول تعد مملكة البابا مستقلة عما حولها وتحترمهُ كملك زمني فوق ما لهُ من الاحترام الديني بصفتهِ الرئيس الاعظم للكنيسة الكاثوليكية . فلما كان ما كان من استيلاء ايطاليا على رومية وتجريدها البابا من املاكهِ دخلت البابوية في دور جديد هو الدور الحالي واصبح خليفة مار بطرس في مقام فريد بين الملوك لا شبيه لهُ

ولا مراء ان وجود مملكة للبابا ولو صغيرة جعلهُ مستقلاً في اعمالهِ لا سلطة لغيرهِ عليهِ . غير ان تجريد دولة ايطاليا لهُ منها تركهُ وحيدًا فريدًا . ولو كان رئيسًا لكنائس ايطاليا وحدها لما اهتم احد بامرهِ بل كانوا تركوهُ وشأنهُ مع الايطاليان لكنهُ رئيس الكنيسة الكاثوليكية في العالم اجمع وكلها تنظر اليهِ كنائب المسيح على الارض وراعيها في المسائل الدينية فيهمها اذًا ان لا يكون تابعًا لدولة من الدول بل يكون مستقلاً عنها كلها اذ لو فرضنا انهُ كان تابعًا لاحداها لتمكنت تلك الدولة بواسطتهِ من المداخلة في اعمال بقية الممالك الداخلية فتكسب بذلك قوة وسلطانًا لا يقدران

وقد ادرك الايطاليون من البداءة ان العالم الكاثوليكي ينظر بعين القلق الى مصير البابوية بعد فتوحات فكتور عمانوئيل فعرض الكونت كافور سنة ١٨٦١ على فرنسا وعلى الفاتيكان ان يتنازل الفاتيكان عن املاكهِ فتضمن لهُ ايطاليا الاستقلال التام في اعمالهِ الدينية ويكون لهُ الامتياز الذي للملك وتدفع الدول الكاثوليكية نفقات الكنيسة فابى بيوس التاسع الموافقة على ذلك . ثم عرضوا عليهِ اسلوبًا آخر سنة ١٨٦٨ وهو ان يترك مستقلاً في الفاتيكان وحي ليونين (وهو واقع بين نهر التيبر والفاتيكان ويبلغ عدد سكانهِ خمسة عشر الفًا) فابى ايضًا . ثم جددوا هذا الاقتراح سنة ١٨٧٠ وضمنوا للبابا جميع الامتيازات التي للملوك فاصرَّ على الاباء .

ولما استولى فكتور عمانوئيل على رومية رأى ان اول واجب عليهِ هو ازالة الشك الذي ربما خامر بقية الدول الكاثوليكية من جهة بقاء البابا مستقلاً فاصدر قانون الضمانة في ١٣ مايو سنة ١٨٧١ لانهُ خاف انهُ اذا لم يفعل ذلك هجر البابا رومية فتخسر برحيلهِ عنها الشيء الوحيد الباقي من عظمتها السابقة التي جعلتها في مقدمة الممالك المسيحية

اما الاساس الذي بني عليهِ قانون الضمانة فهو وجود كنيسة حرة في بلاد حرة . وقد تركوا للبابا المقام الملكي الذي كان فيهِ لكنهم جردوهُ من املاكهِ فاصبح ملكاً بلا مملكة . وملخص ما جاء في هذا القانون ان ليس للبابا املاك قط بل لهُ الانتفاع ببعض القصور كالفاتيكان وقصر لاتران مع ما يتبعهما من الحدائق وان هذه القصور وما احتوت عليهِ من المعارض والتحف تكون معفاة من الضرائب ولا يمكن بيعها او نزع ملكيتها للمنفعة العامة وشخص البابا مقدس كشخص الملك ولا يمكن محاكمتهُ امام المحاكم الجنائية وكل تعدٍّ عليهِ او مكيدة ضدهُ تجازى كما لو كانت موجهة الى الملك نفسهِ . ويؤدى للبابا حيثما سار في ايطاليا نفس الاحترام الذي يؤدى للملك ولهُ التقدُّم على الملك في الحفلات الرسمية وهي الطريقة التي جرى عليها بقية الملوك الكاثوليك . ولا يمكن لمأموري الحكومة الايطالية الدخول الى قصر البابا حال تأدية واجباتهم بغير اذن منهُ ولقداستهِ ارسال السفراء لدى الدول وقبول السفراء منهم ايضاً ولهُ ان يجري شؤون سلطتهِ الدينية بتمام الاستقلال وان يتخابر مع الكاثوليك في كل العالم من غير مراقبة او معارضة من قبل الحكومة الايطالية . ولما كانت ادارة الكنيسة تقتضي نفقات طائلة قطعت لهُ ايطاليا مالاً سنوياً حسب آخر ميزانية عملها في مملكتهِ . لكن الفاتيكان رفض قبول هذا المال ولم يأخذ شيئاً منهُ حتى الآن

قلنا ان مقام خليفة مار بطرس بين الدول مقام فريد لا شبيه لهُ . فالبابا ايطالي الجنس يولد ويعيش في ايطاليا لكنهُ غير تابع لها بل هو مستقلٌّ وشخصهُ مقدس كشخص الملك وخارج عن سلطة المحاكم الايطالية . وهو مجرد تمام التجريد عن الاملاك الزمنية التي هي اهم اختصاصات الملوك اذ وجود الملك يستدعي وجود المملكة . واساس علاقات الدول بعضها مع بعض هو عدم المداخلة اي ان كلاً منها حرة في اجراآتها الداخلية بخلاف علاقاتها مع كرسي البابوية فانها مبنية على ما للبابا من حق المداخلة في احوال بقية الممالك واجراء المراقبة والتأديب . فللبابا في كل منها نفوذ سياسي وديني وبموجبهِ تداخل البابا لاون الثالث عشر في الانتخابات الالمانية . غير ان بعض الدول احتاط لذلك فقرَّر عدم نشر شيء من منشورات البابا قبل تصديق الحكومة عليهِ

وخلاصة القول ان البابا ايطالي لكنهُ غير تابع لايطاليا وملك ولكنهُ اصبح بلا مملكة ولهُ حق المداخلة في امور بقية الممالك حالة كونها لا تسمح احداها للاخرى بذلك . وظاهر مما تقدم انهُ لا يزال كما كان في القرون الوسطى في مركز دولي يساعدهُ على حفظ السلام بين الممالك الاوربية وعلى دعوتها الى الاتحاد والتعاون في كل ما يؤول الى راحة البشر ولرفع شأن الانسانية

وقد احتجَّ البابا بيوس التاسع الذي سقطت رومية في ايامهِ على حكومة ايطاليا وامتنع عن قبول المال السنوي الذي قطعتهُ لهُ واعتصم بقصر الفاتيكان ولم يعد يخرج منهُ وسار البابا لاون الثالث عشر على خطتهِ في ذلك لاسيما وانهُ خلفهُ والجرح لا يزال دامياً والافكار مضطربة

هذا من حيث تاريخ البابادات ومقامهم الديني والسياسي . اما كيفية انتخابهم فهو انهُ حينما يتوفى احدهم ينوب الكامرلنج عن مجمع الكرادلة في ادارة اعمال الكنيسة ثم يجتمع المجمع المذكور في الفاتيكان وتقفل الابواب والنوافذ بناء بالحجارة الاَّ باباً واحداً للخروج والدخول منهُ وبعد حضور القداس في اليوم الاول يقسم الكرادلة اليمين المعتادة في هذه الاحوال ثم يخرج الاجانب ويقفل الباب ويبقى الكرادلة مع خدمهم والطبيب والبنَّاء والنجار وخلافهم ويجري الانتخاب مرتين في اليوم قبل الظهر وبعدهُ فاذا لم ينل احد المرشحين اكثر من ثلثي الاصوات تحرق اوراق الانتخاب مع قليل من القش المبلل فيصعد لها دخان كثيف من مدخنة عالية ويعلم الناس في الخارج ان كرسي البابوية لم يزل خالياً . فاذا نال احدهم العدد اللازم من الاصوات أُحرقت الاوراق وحدها فلم يصعد لها دخان فيعلم الجمع حينئذٍ انهُ تم الانتخاب . ويتقدم اقدم الكرادلة الى المنتخب ويسألهُ عما اذا كان يقبل المنصب وعن اللقب الذي يختارهُ ثم يلبسونهُ الحلة البابوية ويؤمر البنَّاء فيفتح النوافذ التي يكون قد سدها ويقف الكردينال الاول في شرفة كنيسة مار بطرس ويقول للشعب باللاتينية ما ترجمتهُ

" أبشركم بفرح عظيم فقد انتخبنا بابا الكردينال فلان المعظم وقد اتخذ لنفسهِ الاسم الفلاني " . ثم يظهر البابا الجديد للجمهور المجتمع في ساحة مار بطرس ويمنحهم البركة الرسولية " لمدينة رومية وللعالم اجمع "

وقد تم في هذا الشهر انتخاب قداسة البابا الحالي الكردينال جوزف سارتو الذي اختار اسم بيوس العاشر وتوج في كنيسة مار بطرس يوم الاحد في ١٠ منهُ امام جمهور عظيم يربو على خمسين الفاً

ن . ب